عوامل قيام النهضات الحديثة في الشرق الإسلامي

ليست النهضات الحديثة في الجزيرة العربية إلا حلقة من سلسلة النهضات القائمة في الشرق الإسلامي، التي ترمي إلى تحرير الشعوب الشرقية المسلمة واستقلالها، وإلى النهوض بها في شتى نواحي الحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية. وهذه النهضات على الرغم من كونها متفاوتة في درجات تطورها وفي قوة اندفاعها وفق حالات الشعوب الإسلامية الخاصة بكل منها في حدودها السياسية والجغرافية، على الرغم من كل هذا فهي في جملتها ترجع إلى عاملين رئيسيين، عامل ديني وعامل قومي.

العامل الديني

أما العامل الديني فهو مبادئ الإسلام التي حفزت المسلمين إلى العمل للحرية والنهوض، وحركت في نفوسهم النزعة إلى استعادة مجدهم الضائع، فنحن نؤمن بأن مبادئ الإسلام القويمة التي دعا بها محمد عليه السلام يوم أن بعثه الله بالحق هادياً ومبشراً ونذيراً فآمن الناس بها وصدقوها، وأصبح المسلمون بفضل اعتناقها والعمل على ضوئها أمة قوية عزيزة الجانب، نؤمن بأن هذه المبادئ

بعينها فى مقدمة الأسس التى تقوم عليها نهضات التحرير والاستقلال التى نشهدها وهى فى بدء تطورها ، ونراها اليوم فى كثير من بلاد الشرق الإسلامى .

ولقد كان الإسلام أساساً للنهضات الإصلاحية العامة الشاملة من وقت أن بعث به الرسول إلى اليوم ، يقوى المسلمون ويعزوا كلما أخذوا بتعاليمه ، وحافظوا على العمل بمبادئه ؛ وينالهم الوهن والضعف كلما ضعف إيمانهم بهذه المبادئ ، وتهاونوا فى العمل بها والمحافظة عليها .

تتغير حال المسلمين فى مختلف عصور التاريخ وتتبدل من قوة إلى ضعف ومن ضعف إلى قوة ، والإسلام لا يزال ، وسوف لا يزال هو الإسلام بمبادئه الحية القويمة الصالحة لكل زمان ومكان ، كما أنه لا يزال ، وسوف لا يزال أساساً لنهضات الحرية والإصلاح بين معتنقيه ، ومنبع القوة الفياض فى الشعوب المسلمة ، ومعينها الذى لا ينضب .

وليس المقام هنا مقام شرح وبيان لهذه المبادىء ، فهذا غير موضوعنا ومالسنا بحاجة إليه ، ولكنك سوف يزيد إيمانك بهذه النظرية التى ننادى بها إذا عرضنا عليك صورة موجزة لتطور التاريخ الإسلامى واختلاف أحوال المسلمين بين الأمم من مبدأ الدعوة المحمدية وفجر النهضة الإسلامية إلى العصر الحاضر .

العرب قبيل الاسلام

بعث محمد بن عبدالله سيد الخلق والعالم فى اضطراب شامل ، وفوضى تغلغلت فى كل مرافق الحياة ، ولقد وصل سوء الحال فى دولتى الفرس والروم ، أكبر دول الأرض إذ ذاك ، إلى الحد الذى أخذت معه صروح النظم فيها تتداعى إلى الانهيار ، وأخذت معه شعوب هذه الدول طريقها نحو الانحلال .

أما العرب وسكان الجزيرة فهؤلاء كانوا قد بلغت بهم الحال أقصى درجات السوء ، على الرغم مما كان يتصف به الفرد العربى من كريم السجايا وطيب الخصال ، فقد كان العرب أشتاتاً منقسمين على أنفسهم لا تربطهم وحدة ولا تجمعهم فكرة ، ليس لهم دولة عربية تحميهم وتجمع شتاتهم ، فكل قبيلة كانت تعتبر نفسها وحدة مستقلة وأمة منفصلة لا حرمة لغيرها من القبائل عندها ، فهى تستحل دماء غيرها من قبائل العرب ، وتستبيح أموالهم طلباً للغنيمة وسعياً وراء الرزق ، كانوا قساة القلوب لاتعرف الرحمة إلى قلوبهم سبيلا ، فالرجل يقتل أخاه لأدنى أسباب الخلاف وأتفهها ، ويئد ابنته خشية الإملاق .

وفوق هذا فهم قد كانوا أيضاً مختلفين فى العقيدة والفكرة ، وإن شملهم جميعاً سوء الحال بالشرك بالله وعبادة الأوثان ، وهذا هو أصل الداء وجرثومة المرض ؛ فقد كان لكل قبيلة معبود خاص تصنعه بيدها وتعبده من دون الله ، وتقدم له القرابين ، وهى تعلم أنه لايضر ولا ينفع ؛ نزلوا بأنفسهم عن درجة الإنسان المفكر ، وعمتهم الفوضى ، وشملهم الاضطراب ، فلا أمن فى جزيرة العرب ولا ثقة ولا اطمئنان ولا قرار .

العرب بعد اعتناقهم للإسلام

فى هذا الوسط نشأ محمد بن عبد الله ، وكأن الله جعل من وسائل إعداده للرسالة أن ينشأ فى الوسط الذى سيكون إصلاحه على يديه ، فتعرف مواطن النقص فى المجتمع العربى ، وشغل بالتفكير فى حال أمته العربية ، ثم بعثه الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، فصدع الرسول بالأمر ، وجهر بالدعوة ، ودعا إلى الإصلاح ، ولم يكن له من نصير بعد ربه — وهو نعم المولى ونعم النصير — سوى إيمانه القوى وثقته بالله وبنفسه وبرسالته . فذللت الصعاب وهانت المشقات ؛ واعتنق العرب الإسلام وتحلوا بفضائله وتركوا ما كانوا عليه من رذائل ، تركوا الفوضى ، وخضعوا للنظام ، وآمنوا بتعاليم الإسلام ، فأصبحوا بفضل الله إخوانا متحابين يجمعهم التوحيد وتظلهم جميعاً راية الإسلام ؛ وحد محمد بينهم برسالته فى العقيدة فأصبحوا يدينون بمبدأ واحد ، ويعبدون الله إلهاً واحداً ، ووحد بينهم فى المظهر فجعل منهم أمة واحدة عربية مسلمة قوية عزيزة ؛ ثم كانوا بعد ذلك دعاة الإسلام وحملة لوائه ، يدعون إليه وينشرونه فى جميع بقاع الأرض ، وينحون عن طريق الدعوة كل ما اعترضها ، ووقف فى سبيل نشرها ، فكانوا أقوياء أعزاء ماداموا يعملون بتعاليم الإسلام آخذين بمبادئه .

كان الإسلام إذاً من يوم أن بعث به الرسول أساساً لنهضة إصلاحية عامة شاملة ابتدأت فى جزيرة العرب ، ثم لم تلبث أن غزت الأمم والبلاد المجاورة للجزيرة ، كما لم تلبث أن شمل خيرها وسادت مبادئها فى العالم .

المسلمون منه عصر الرسول الى قيام الدولة العباسية

مازال الله يمد رسوله بالوحى والتأييد حتى نشر الرسول دعوته ، وتم رسالته ، ونزل قوله تعالى : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا » ثم اختار الرسول جوار ربه ، وصعدت روحه الطاهرة إلى الرفيق الأعلى ، بعد أن أسس الدولة الإسلامية الأولى ، وبعد أن قامت النهضة الإصلاحية الإسلامية على أسس الإسلام ومبادئه .

ورث المسلمون هذا التراث العظيم من بعد نبيهم ، وتعهده أبو بكر ، وبقية الخلفاء فى دولة الخلفاء الراشدين ، وقاموا عليه خير قيام . وبعد وفاة الرسول حدثت حركة الردة وغيرها من كبار الحوادث ، فصمد لها أبو بكر ، وتغلب عليها بقوة إيمانه ومضاء عزيمته ، ومن ورائه بقية الصحابة يشدون أزره ويعاونونه فى نشر الإسلام ، وتثبيت قواعده ، فلم تمض سنة كاملة حتى أعاد الخليفة فيها العرب المرتدين إلى حظيرة الإسلام من جديد ، فانضموا إلى إخوانهم المؤمنين وآمنوا بإيمانهم القوى ، وكانوا جميعاً عقب هذا رسل الإسلام ودعاته فى البلاد التى فتحوها ، وأدخلوا فيها الإصلاح الإسلامى ؛ ثم أخذت رقعة الدولة الإسلامية العربية تتسع ، وأخذت الفتوحات تكثر بفضل الإسلام واعتناق مبادئه .

ولقد نشأت العصبية الدينية بين المسلمين مصاحبة لاعتناق السابقين منهم لمبادىء الإسلام ، فأصبح العربى المسلم يصدر فى تصرفاته متأثراً بمبادىء

الإسلام وحدها ، بعيداً عن التأثر بتقاليد الجاهلية الأولى ، وغدت هذه المبادىء هى الموجهة لكل مسلم فى تصرفاته ، فكان الرجل منهم يؤازر الرسول فى نشر الدعوة ، ويقاتل فى صفوف المسلمين ضد الشرك وأنصاره ، ولو كان من بين هؤلاء الأب أو الأخ وذو الرحم والقرابة كما حدث فى غزوة بدر مثلا ، هذه هى العصبية الدينية التى نقصدها ، وهى معنى من معانى البناء والتأسيس .

وفى حجر هذه العصبية الدينية تربت العصبية القومية بالمعنى العام الصالح الذى لايتنافى مع المساواة الإسلامية ، ولا مع المبدأ القائل بأنه « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » إذ أن جمع العرب على كلمة التوحيد بواسطة مبادىء الدين الحنيف التى اعتنقوها وآمنوا بها كان سبباً فى التفاتهم إلى ما كان بينهم من رابطة قومية هى رابطة العروبة ، وفى تنبه الشعور القومى السليم فى العرب . وكأن الإسلام كان يقصد أن يكون للعرب ، حملة الرسالة الإسلامية للناس كافة من بعد الرسول رابطة أخرى قوية غير الرابطة الدينية تكون سناداً لها وعاملا قويا معها فى تآزر المسلمين وتقوية شعورهم بالتبعة والمسئولية فى العمل لنشر الدعوة خارج الجزيرة العربية ، وفى سائر أنحاء المعمورة . ولعل هذا هو ما كان يريده الرسول عليه الصلاة والسلام حينما أوصى [١] فى آخر حياته بألا يترك فى جزيرة العرب دينان ، فقد كان الرسول يقصد بهذه الوصية أن يسود الإسلام جزيرة العرب وألا يترك دين آخر غير الإسلام فيها ، وهو

---

(١) راجع نيل الأوطار ، جـ ٨ ص ٢٢٠ ، ٢٢٢ طبعة منير الدمشقى بالقاهرة لسنة ١٣٤٤ هـ .

يريد من وراء ذلك ـ فيما نعتقد ـ أن يجتمع للعرب عاملان من عوامل التآزر والقوة ، هما عامل الدين وعامل القومية بالمعنى المعتدل الذى لا يتنافى مع الديمقراطية والمساواة الإسلامية . ولقد فهم عمر بن الخطاب هذه الوصية على وجهها ، ونفذها بما يحفظ للجزيرة العربية وحدتها الدينية ووحدتها القومية حينما أجلى اليهود والنصارى عن الحجاز ونجران إلى الشام والعراق .

اجتمع العرب إذاً على دين واحد هو الإسلام ، وشعروا بأنهم أبناء جنس واحد تربطهم جميعاً رابطة العروبة ، فاجتمع لهم بذلك عاملان من عوامل التأسيس والبناء كما قلنا ، هما العصبية الدينية والعصبية القومية بالمعنى العام الصالح ،فكانتا منبع القوة للدولة الإسلامية .

وبعد انقضاء دولة الخلفاء وقيام الدولة الأموية كان للعصبية القومية المشار إليها المكان الأول ؛ ولكن العصبية الدينية كانت لاتزال قوية بجانبها فأدى ذلك إلى قوة الدولة ، وبلغت الفتوحات الإسلامية فى عهد الأمويين أقصاها إلى أن ضعف الروح الدينى الإسلامى فى نفس القائمين بالأمر ، وانحلت العصبية القومية الصالحة ، وحلت محلها العصبية القبلية الممقوتة التى رجعت بالأمة العربية المسلمة إلى بعض عادات الجاهلية الأولى ، فجعلت من العرب المسلمين شيعاً وأحزابا ، جعلت منهم يمانية ومضرية ، أو عدنانية وقحطانية ، فتفككت بذلك وحدتهم وضعفت قوتهم ، فأدى هذا وغيره من العوامل إلى سقوط الدولة الأموية .

المسلمون فى عصر الدولة العباسية

وبعد سقوط الدولة الأموية قامت الدولة العباسية وورثت ملك الأمويين ، وكان العامل الدينى قوياً والتمسك بالمبادىء الإسلامية واضحاً فى مبدأ قيام الدولة وفى عصرها الأول ؛ ثم انقضى هذا العصر الذهبى الذى اجتمعت فيه عوامل القوة والفتوة للدولة ، وأخذ دبيب الانحلال والضعف يدب فى أوصال هذه الإمبراطورية الإسلامية الكبرى فاضطربت أمور الخلافة ، وضعفت سلطتها المركزية ، واستقلت أطراف الدولة وتكونت الدويلات الإسلامية ، فانحلت جماعة المسلمين الكبرى ، وضعف شأنهم ، وأخذت هذه الدويلات يكيد بعضها للبعض الآخر .

ظهر المسلمون وقتئذ بمظهر الضعف ، وكانوا ضعفاء حقاً لأن الروح الدينى الإسلامى قد ضعف فى نفوسهم فضعفت فيها معانى القوة المبنية على مبادىء الإسلام ، تلك المبادىء التى تدعو إلى الوحدة وإلى التضحية فى سبيل الله ، فى سبيل الجماعة والصالح العام . كانوا ضعفاء لأن نفوسهم أشربت حب الأثرة والأنانية ، ولأنهم مالوا إلى الدعة والتواكل وإيثار الشهوات ؛ وكانت النتيجة أن استضعفهم العدو ، وأخذ الصليبيون يهاجمونهم وينالون منهم ويغلبونهم على ديارهم وأوطانهم ، ويؤسسون فيها الدويلات المسيحية . وهنا ، فى هذه الأوقات العصيبة ، شعر المسلمون بالخطر يحدق بهم ، فأفاقوا من غفلتهم وثابوا إلى رشدهم ، وعادوا إلى دستورهم ، إلى مبادىء الإسلام يستمدون منها القوة فى الدفاع عن كيانهم ومناهضة عدوهم ، فقوى الروح الإسلامى فى نفوس

المسلمين من جديد ، وكان لهم عدة وقوة استطاعوا بها أن ينتصروا على عدوهم ، وأن يطردوا الصليبيين من بلادهم أثناء تلك الحروب الصليبية التى دامت نحو قرنين [١] والتى كانت ميدانا للتلاقى بين الإسلام والنصرانية ، بين الشرق والغرب .

الأتراك العثمانيون يحملون راية الإسلام

انتصر المسلمون على الصليبيين بفضل مبادئ الإسلام ، ثم شرعوا يغزونهم فى بلادهم ، وينتصرون عليهم فى عقر دارهم بفضل المبادئ الإسلامية أيضاً تلك المبادئ التى جعلت من المسلمين قوة متحدة يحصل أفرادها على النصر والحياة باستعدادهم للتضحية والموت فى سبيل الله وإعلاء كلمته ، فلقد ابتدأ بعد الحروب الصليبية الأتراك العثمانيون المسلمون ـ وهم فى كنف السلاجقة فى آسيا الصغرى ـ يغزون بلاد الدولة الرومانية الشرقية ويستولون على مدنها ، وبعد أن قضى المغول على السلاجقة عام ٦٩٩ هـ / ١٣٠٠ م قامت الإمارة العثمانية التى أصبحت فيما بعد دولة كبرى وإمبراطورية شامخة ؛ ثم حمل هؤلاء العثمانيون لواء الإسلام وراية الشرق غازين فاتحين لبلاد الغرب النصرانية ، فساروا من نصر إلى نصر ، وفتحوا عاصمة الدولة البيزنطية [٢] وتوغلوا فى أوربا فاتحين

---

(١) وقعت الحروب الصليبية فى القرنين السادس والسابع للهجرة ؛ من نهاية القرن الحادى عشر إلى نهاية الثالث عشر للميلاد .

(٢) فتحت على عهد محمد الثانى الملقب بالفاتح ، سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م .

ظافرين حتى وقفوا أمام أبواب ڤينا ، وتوقفت فتوحاتهم عند أسوارها عام ١٠٩٤ هـ / ١٦٨٣ م .

ولقد كان موقف أوربا طول هذا الوقت موقف المدافع المخذول أمام هجمات المسلمين الأبطال الذين عمرت نفوسهم بالإيمان ، وتحلوا بأخلاق الإسلام الذى كان لهم قوة ، وسلك بهم سبل النصر والعزة ماداموا به عاملين ، ولمبادئه منفذين .

المسلمون بعد الحروب الصليبية

وبعد الانتصارات التى أحرزها المسلمون فى الحروب الصليبية ، وفى الوقت الذى حمل فيه الأتراك العثمانيون راية الإسلام وساروا فى فتوحاتهم ، قنع المسلمون فى الشرقين الأدنى والأوسط بما أحرزوا من نصر ، وداخلهم الغرور وجنحوا إلى الكسل ، وتهاونوا من جديد فى الأخذ بمبادئ الإسلام الداعية إلى العمل ، ومواصلة التأهب للحوادث ، وإعداد العدة ، ومسايرة الزمن فى تطوراته ، وشغلتهم شهواتهم وخلافاتهم فضعفوا ووهنت عزائمهم ، وأخذتهم سنة من النوم ، وأصبحوا فى غفلة عن الحوادث العالمية وعما يخبئه لهم القدر .

ولقد كانت قيادة الأتراك العثمانيين وحكمهم للعالم الإسلامى أو معظمه — بعد أن تم لهم الاستيلاء على شمال إفريقية ، ومصر ، والعراق ، والجزيرة العربية فى القرن السادس عشر الميلادى — من الأسباب التى ساعدت على الركود فى الشرق الإسلامى فى ذلك الوقت ، فقد قنعت حكومة السلاطين العثمانيين بما حصلت عليه من نصر حربى ، ولم تعمل على المساهمة فى الحركات العالمية الثقافية

والاقتصادية ، كما كانت تفعل الحكومات الإسلامية الكبرى التى سبقتها ، وكما تقتضى وتتطلب التعاليم الإسلامية ، على الرغم من تهيء الكثير من الأسباب للعثمانيين ليحلوا مكانة الزعامة بين الدول ، فيما لو كانوا قد عملوا لذلك واتجهوا إليه ، إذ أنهم كانوا أصحاب القوة والسلطان ، كما أنهم كانوا قد وضعوا أيديهم على مفاتيح الطرق العالمية الكبرى ؛ ولكنهم آثروا سياسة العزلة والاستكفاء ، وعملوا على قتل كل فكرة إصلاحية جديدة ، سياسية كانت أو اجتماعية ، فساعد ذلك على الركود والضعف فى الشرق الإسلامى ، وأطمع الغرب الناهض رويدا رويدا ، وجعله يتخذ هذه البلاد فيما بعد مواطن للاستعمار ونشر النفوذ .

الغربيون فى نهوضهم وتقدمهم

أما الغربيون الذين خذلوا أمام المسلمين ، والتقوابهم فى ميدان الحروب الصليبية ، فقد انتفعوا بهذا اللقاء وحملوا إلى بلادهم الكثير من الاصلاحات الإسلامية ، وانتبهوا من غفلتهم ، وأخذوا يدأبون على العمل ، ويسعون لإصلاح مافسد ، واستكمال مانقص .

قامت النهضات المختلفة فى بلادهم ، ثم شغلوا بعد ذلك بالرحلات الإستكشافية إلى جزر الهند الغربية ، وإلى أمريكا ، وباستغلال هذه البلاد الجديدة الشاسعة الغنية بمواردها الطبيعية ، كما شغلوا أيضاً باستغلال الأسواق والمحاصيل الجديدة فى جزر الهند الشرقية والشرق الأقصى ، آخذين طريقهم إلى هذه الجهات النائية

عن طريق رأس الرجاء الصالح ، متجنبين طريق البحر الأبيض المتوسط والمرور بالبلاد الإسلامية فى الشرقين الأدنى والأوسط .

ومازالت صلات الغربيين بهـذه البلاد وأهلها فى حـكم المنقطعة بعد الحروب الصليبية ، لا يعلمون ماوصل إليه هؤلاء من الضعف وسوء الحال ، حتى حصل الالتقاء من جديد وعن غير قصد بين الشرق والغرب .

الشرق والغرب يلتقيان من جديد

فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى ، وبعد مضى قرن كامل على معاهدة كارلوفيتس [١] التقى الشرق بالغرب من جديد ، وغزا نابوليون مصر [٢] بدون علم من أهلها ، وبدون سابقة منهم تستوجب غزو بلادهم وتوجيه مثل هـذه الحملة إليهم . وما كانت مصر وقتئذ إلا ميداناً من ميادين الصراع الداخلى فى أوربا ، فلقد أرادت فرنسا تحويل تجارة الهند الرابحة التى كانت تحتكرها انكلترا سيدة البحار عن طريق رأس الرجاء إلى طريق البحر الأحمر الذى يمر بمصر وينتهى فى البحر الأبيض المتوسط ، فيتم لها بذلك الاستيلاء على هذه الموارد الطائلة دون الإنجليز ؛ ولا يتم هـذا إلا بالاستيلاء على مصر التى كانت تابعة للدولة العثمانية .

(١) عقدت هذه المعاهدة سـنة ١٦٩٩ م ، بين الأتراك العثمانيين من ناحية ـ بعد أخذالهم أمام أسوار ڤينا سنة ١٦٨٣ م ، وبعدأن أخذوا يتراجعون أمام القوى الأوربية — وبين الدول الأوربية إذ ذاك من ناحية أخرى ، وكانت نصرا مبينا للغرب على الشرق بما تضمنته من التزام تركيا بالتنازل عن كثير من ممتلـكاتها .

(٢) وصل نابوليون إلى الاسكندرية سنة ١٧٩٨ م ، وعاد إلى فرنسا سنة ١٧٩٩ م ، وتم جلاء جنوده عن مصر سنة ١٨٠٢ م .

لم تكن مصر إذاً مقصودة بالغزو لذاتها ، ولم تطل مدة احتلال الجنود الفرنسية لها حتى جلوا عنها وعادوا إلى بلادهم ؛ ولكن اتصال الغرب بالشرق بواسطة هذه الحملة نبه الغربيين إلى مواطن الضعف فى هذه البلاد ، وجعلهم يطلعون على ماوصل إليه أهلها من ضعف القوى الحربية ، وتأخر أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية ،ويلمسون ضعف الروح المعنوى فى نفوسهم بضعف الروح الإسلامى الدينى فيها ؛ كما جعلهم يبدءون فى اتخاذ الشرق الأدنى والأوسط أسواقا رائجة لتجارتهم ، وميدانا لنشر حضارتهم ؛ولم يلبثوا أن أفلحوا فى تحقيق هذا الغرض معتمدين على قوتهم الحربية التى غدت تفوق قوة المسلمين فى الشرق، وعلى ماتسلحوا به فوق هذا من العلم والمعرفة .

الدولة العثمانية فى انحلال

وفى هذه الأثناء كانت عوامل ضعف الإمبراطورية العثمانية ، وأسباب انحلالها قد تكونت ، فشغل القائمون بالأمر لدى الباب العالى بالدسائس والشهوات ، والسعى وراء تحقيق الأغراض الشخصية ، يضحون فى سبيل ذلك بصالح الدولة العام ، وبصالح الشعوب التابعة للدولة .

ثم تدلى الشرق الأدنى الإسلامى فى الانحطاط ، وظهرت « المسألة الشرقية » فى وضعها الأخير ، وأصبحت هذه البلاد حقلا لتجارب السياسة الأوربية ، خاضعة للنفوذ الغربى ، يصرف الغربيون الأمور فيها حسب أهوائهم ومصالحهم

الخاصة ، غير مراعين لصالح سكانها وكرامتهم . وسار الشرق الإسلامى فى طريق التقهقر والضعف حتى وصل إلى آخر مرحلة فى الانحلال بسقوط الامبراطورية العثمانية فى الحرب الكبرى الأولى .

المسلمون يسعون للنهوض

وفى أثناء هذا الدور الأخير ، وذلك التطور الخطير ، رجع المسلمون إلى أنفسهم باحثين عن أسباب ماهم فيه من الضعف ، وما وصلوا إليه من الانحلال وعاملين على النهوض ، والتخلص من تحكم الأجنبى فى رقابهم ؛ وساعين لدفع ما أحدق بهم من خطر .

اتجهت الأفكار إلى بعث الروح القومى الوطنى فى النفوس ، وظن القائمون بهذه الحركة فى المبدأ خطأ ، أنهم يستطيعون النهوض بوطنهم وشعوبهم إذا ما قلدوا الغرب فى نهضاته القومية ، متغاضين عن الدين وتعاليمه ،فأخذوا يدعون مواطنيهم لاعتناق مبدأ القومية المنقولة عن الغرب ، التى كانت تتضمن مناهضة الكنيسة وبالتالى مناهضة المبادىء الدينية للأسباب التى سنشرحها ، وفاتهم فى دعوتهم أن يعرفوا أن الأحوال فى الغرب كانت غير الأحوال والملابسات فى الشرق سياسياً ودينياً واجتماعياً ، وأنه ليس كل ماصلح للغربيين فى نهضاتهم يصلح مثله للشرقيين ويساعدهم .

ولكن سرعان ما تبين لهم خطؤهم ،وأيقن المصلحون أنه لايتم الخلاص للمسلمين مما حل بهم إلا بالرجوع إلى تعاليم الإسلام ، والعمل على إحياء مبادئه القويمة ،

فنشأت حركات الإصلاح الدينى الإسلامى فى الهند[١] وظهرت فكرة « الجامعة الإسلامية » [٢] وأخذ السلطان عبد الحميد يتعهد هذه الفكرة بعد ظهورها ويمدها بنفوذه وتأييده ، ولكنه اتجه بها اتجاها سطحيا غير صائب ، لأنه لم يتخذها غرضا أساسيا يسعى لتحقيقه بكافة الوسائل ، بل جعلها وسيلة يصل بها إلى تحقيق أغراضه السياسية ، فانعكس عليه الغرض ، ولم يصل إلى مايريد .

أما الحركات الإسلامية الإصلاحية فسارت فى طريقها قدما ، وأخذت تتدرج فى أدوار التطور الطبيعية ، وأصبحت حركة إحياء وتجديد بقيادة زعيم الشرق الإسلامى المصلح جمال الدين الأفغانى ومدرسته التى تزعمها بعده الأستاذ الإمام محمد عبده ؛ فلقد آمن هؤلاء المصلحون ـ وهم على حق ـ بأنه

---

(١) هذه هى حركات الإصلاح العقلية التى أراد بها طائفة من علماء الهند المسلمين الإصلاح الثقافى ، والتوفيق بين الإسلام وبين مطالب المدنية الأوربية الحديثة . راجع كتاب « الإسلام والتجديد فى مصر » لآدمس ، معرب ص ٤ وكتاب :

Die Richtung der islamischen Koranauslesung

لجولد زيهر ، ص ٢٣٠ .

(٢) ينقل آدمس فى كتابه « الإسلام والتجديد فى مصر » هامش صحيفة ١١ـ١٢ أن السيد جمال الدين الأفغانى أنشأ بمكة جمعية أم القرى لتدعو إلى الجامعة الإسلامية تحت لواء خليفة واحد يسيطر على العالم الإسلامى أجمع ، وأن السلطان عبد الحميد قضى على هذه الجمعية بعد عام واحد من تأسيسها . ونحن نقول إن قضاء السلطان عبد الحميد على أمثال هذه الجمعية كان من سياسته التقليدية ، فإنه كان يخشى كل حركة إصلاحية ، ولكن قضاءه على جمعية أم القرى لم يمنعه من استخدام فكرة « الجامعة الإسلامية » لحسابه كما بينا .

لابد لإصلاح حال الشعوب الإسلامية سياسيا واجتماعيا من الرجوع بتعاليم الإسلام إلى نقاوتها وبساطتها الأولى ، وتجريدها مما علق بها فى أيام الانحلال والضعف وليس منها ؛ نادى هؤلاء المصلحون بأن الإسلام دين الإصلاح الصالح لكل زمان ومكان ، دين الناس كافة الذى يلائم جميع العصور والثقافات .

* * *

العامل القومى

ومع اعتناق هؤلاء المصلحين للفكرة الدينية وتشجيعهم لها فقد شجعوا أيضا الروح القومية ، ولكنهم عملوا على أن يكون الإصلاح الدينى أساساً للنهضات القومية الوطنية التى كانت فى المبدأ جامحة عن طريق الإسلام ، والتى كان القائمون بها يقلدون الغرب والغربيين فى نهضاتهم ظناً منهم ـ وهم مخطئون ـ بأن هـذا التقليد الجاهل سيصل بهم إلى ما يبتغون من بعث الشعوب الاسلامية من جديد . أبان هؤلاء المصلحون الإسلاميون لأصحاب الحركات القومية الوطنية الجامحة أن نهضات الشعوب لاتفلح إلا إذا كانت مبنية على أساس من عندها ، وأن التقليد فى أمور الاصلاح محمود إذا أخذ المقلد ما يلائمه ، وما يتناسب مع تكوينه وتقاليده الموروثة ، وأن العمل بمبادىء الاسلام والتمسك بها لايصطدم مع مبدأ القومية الملائم للشرق الاسلامى فى تقاليده ووضعه السياسى ، بل يتضافر معه ويقويه فى الوصول إلى الهدف المنشود من التحرر والنهوض .

ولبيان هذا نود هنا أن نفصل ما أجملناه وأشرنا إليه فنقول : إن مبدأ

القومية الذى ساد فى أوربا وأعطى تاريخها فى القرن التاسع عشر الميلادى طابعه كان يتضمن عداء الكنيسة ومناهضة المبادئ التى تدعو إليها بحكم الوضع السياسى . فهذه إيطاليا مثلا كان وضعها السياسى بعد مؤتمر ڤينا سنة ١٨١٥ م أنها تجزأت إلى عشرة أجزاء هى : مملكة بيدمنت ، ولمبارديا ، والبندقية ، وممتلكات البابا ، ومملكة نابلى ، ودوقيات : تسكانيا ، وموديا ، وبارما ، ولوكا ، وجمهوريتا : موناكو ، وسان مارينو ، وكان النفوذ والسيادة فى كل هذه الأجزاء نفوذاً أجنبياً وسيادة أجنبية ، فقد كانت النمسا صاحبة السيطرة والسلطان فى إيطاليا بجميع أجزائها فى البدأ ثم شاركتها فرنسا هذا النفوذ فى بعض المقاطعات الإيطالية بعد حين ، وكان رجال الكنيسة الإيطالية يؤيدون هذا النفوذ الأجنبي ويستنجدون به أحيانا ضد الوطنيين الإيطاليين فى نهضتهم وثوراتهم التى كانت تهدف إلى استقلال إيطاليا ووحدتها ، فنجد البابا غريغورى السادس عشر يستنجد بالنمساضد الوطنيين فى ثورة سنة ١٨٣١ وكذلك فى ثورة سنة ١٨٣٢ ويترتب على ذلك بقاء جيش نمسوى فى ممتلكات البابا لتأييده فى الظاهر ، ولتثبيت دعائم النفوذ النمسوى فى إيطاليا فى الواقع ونفس الأمر ؛ كذلك بعد ثورة سنة ١٨٤٨ نجد فرنسا ترسل جيشا إلى روما سنة ١٨٤٩ لتأييد البابا بيوس التاسع ضد زعماء النهضة الإيطالية ، فيتمكن هذا الجيش من طرد غاريبا لدى وما زيني وجيشهما .

إذاً فقد كان وضع أوربا السياسى فى القرن التاسع عشر فى البلاد الناهضة

الساعية إلى التحرر والاستقلال أن هناك شعباً أوربياً مسيحياً مجزأ مغلوبا على أمره ومشمولا بنفوذ حكومة أو حكومات أوربية مسيحية قوية ، وأن هناك رجال الكنيسة ورجال الدين الإيطاليين يؤيدون هذا النفوذ الأجنبي ضد بنى جنسهم وقوميتهم ويقفون بذلك حائلا بين إيطاليا الناهضة وبين ما يسعى إليه أبناؤها الأحرار ويودونه لها من الوحدة والاستقلال . فليس من الغريب إذاً أن يكون مبدأ القومية الذى ساد فى أوربا وكان فى مقدمة عوامل النهوض والاستقلال لشعوبها المغلوبة على أمرها فى القرن التاسع عشر ، ليس من الغريب أن يكون مبدأ القومية هذا متضمنا لعداء الكنيسة ومناهضة المبادىء التى تدعو إليها ، وهى المبادىء الدينية فى ظاهرها على الأقل .

أما الوضع السياسى للشرق الإسلامى فى القرنين التاسع عشر والعشرين فيغاير وضع أوربا السابق من نواح كثيرة ، حيث منى هذا الشرق الإسلامى بأن يضعف وبأن يشمله فى شعوبه المختلفة نفوذ أجنبى ، وهذا النفوذ الأجنبى وإن تعددت ألوانه وتغيرت أسماؤه فهو فى جوهره شىء واحد ، هو نفوذ أجنبى غربى مسيحى فى شعوب شرقية مسلمة ، ومن هنا لا يمكن أن يتعارض مبدأ القوميه فى الشرق الإسلامى مع المبادىء الدينيه الإسلاميه ، إذ الغايه التى سيؤدى إليها كل من العاملين هنا غاية واحدة مشتركة ، فكما أن غاية العامل القومى فى هذه البلاد الشرقيه المسلمة هى الوصول إلى النهوض والتحرر من النفوذ الأجنبى الغربى المسيحى الذى تغلغل فى سائر أنحائها وعاقها عن النهوض والتقدم وأذاق أهلها ألوانا من الخسف والذل واستعبدهم ،

فكذلك غاية العامل الدينى هى هذه الغاية بعينها ؛ ونضيف إلى هذا أن طبيعة المبادىء الاسلامية غير طبيعة المبادىء التى كانت تدعو إليها الكنيسة المسيحية فالاسلام من مبدأ الدعوة به قد اشترك فى تكوين القوميات بين معتنقيه ، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك ، فقد كان العرب قبل الاسلام أشتاتا منقسمين على أنفسهم ، ليست لهم وحدة تجمعهم داخل نطاق القومية العربية ، فلما بعث الرسول عليه السلام بينهم ودعاهم إلى مبادىء الاسلام فاعتنقوها وتوحدوا تحت راية الاسلام كان ذلك سبباً فى تنبيه الشعور القومى فى نفوسهم ، وفى ظهور القومية العربية وسط الشعب العربى وقضائها على العصبية القبلية ولو إلى حين تلك العصبية التى كانت سبباً فى انقسام القبائل العربية وضعف العرب قبل الاسلام ، ثم فى سقوط الدولة الأموية فيما بعد . كذلك الاسلام عندما يسود فى شعب من الشعوب فهو يدعو معتنقيه إلى معاملة بقية إخوانهم وشركائهم فى الجنسية الذين لم يشاركوهم فى الاسلام معاملة حسنة عادلة ، ويكفل لهم المساواة فى الحقوق والواجبات ، فهم لهم ما للمسلمين وعليهم ماعليهم .

لكل هذا نستطيع أن نقرر أن نقل القومية بمعناها الغربى الذى شرحناه والذى يتضمن عداء الكنيسة ومناهضة المبادىء الدينية إلى الشرق الاسلامى وبدون تعديل مناسب للأوضاع والتقاليد خطأ فاحش لايقره الواقع ولا يساعده منطق الأحداث والمبادىء . وإذا وقع هذا الخطأ ـ كما حدث فى القرن التاسع عشر ـ فسنة التطور والزمن كفيلان بتصحيح الأخطاء ووضع الأمور فى نصابها على يد المصلحين الموفقين الذين يمنحهم الله للأمم الناهضة إبان نهضاتها

أمثال : جمال الدين ، ومحمد عبده أصحاب « العروة الوثقى » التى « كان غرضها دعوة المسلمين إلى توحيد جهودهم لمكافحة الاعتداء الأوروبى ومناهضة الاستعمار » (١) .

ونستطيع أن نقرر أيضاً أن القومية فى بلاد الشرق الإسلامى التى هى من عوامل قيام النهضات الحديثة شىء آخر غير القومية الغربية التى شرحناها فالقومية الإسلامية الشرقية تجمع بين القوتين اللتين ظهرتا فى أواخر القرن التاسع عشر ، تجمع بين القومية الوطنية المشابهة للأوروبية من بعض الوجوه وبين المعنى الدينى الإسلامى الذى يقضى بتعاون المسلمين واتحادهم فى سبيل النهوض والاستقلال ودفع سيطرة الأجنبى والتحرر من « ولاية » غير المسلمين ولقد أصبحت القومية بهذا المعنى الجامع مسيطرة على النفوس موجهة لحركات النهوض والاستقلال فى الشرق الإسلامى ، وحلت محل « الجامعة الإسلامية » التى كانت أمنية الجميع وشاغلهم فى نهاية القرن التاسع عشر ومبدأ القرن العشرين إلى قيام الحرب الكبرى الأولى سنة ١٩١٤ ، وبعد انتهاء الحرب وسقوط دولة الخلافة العثمانية اقتنعت الشعوب الإسلامية واقتنع دعاة « الجامعة الإسلامية » منهم بأنها أمنية لم يؤن الأوان لتحقيقها بعد ، فلقد أثبتت الحوادث أنها ليست فكرة عملية وأنها لم تتمكن من نفوس المسلمين تمكن الإيمان والعقيدة ، فلقد حارب العرب المسلمون دولة الخلافة الإسلامية ووقفوا

---

(١) ص ١١ الإسلام والتجديد فى مصر

ضدها فى صفوف أعدائها من غير المسلمين .

أخذ هـذا الشعور القومى أخيراً بعد سنة ١٩١٨ ينمو فى الشرق الإسلامى ويقوى فى سائر بلاده وبين شعوبه المختلفة فى تركيا وفى إيران ، وفى الشعوب العربية ، فوجه حركات النهوض فيها وغذاها ؛ ولقد تطور بين الأمم العربية حتى وصل إلى تكوين « الجامعة العربية » وأحب أن أنبه هنا إلى أن السعى إلى الجامعة العربية والعمل على تحقيقها لايتنكب عن طريق الجامعة الإسلامية ولا يتنافى مع العمل لها ، بل نقول إن تحقيق الجامعة العربية من الأسس والمقدمات التى لابد منها لتحقيق الجامعة الإسلامية ؛ كما أحب أن أؤكد ماسبقت الإشارة إليه من أن المبادىء الدينية الإسلامية من عوامل الوحدة العربية ، فلقد رأينا كيف تدخل الإسلام فى تكوين القوميات بين معتنقيه وكيف أيقظ الشعور العربى وبعثه فى نفوس العرب بعد أن كانوا فى غفلة عنه .

ونضيف إلى هـذا أن الدين الإسلامى ـ وقوامه القرآن الكريم ، ذلك الكتاب العربى المبين الذى أنزله الله على محمد القرشى ـ يصح أن نعتبره من التراث العربى ، إذا تجوزنا فى التعبير ، فلقد توحد العرب بسبب هـذا الدين فقامت لهم دولة إسلامية ، ثم حملوا رسالته إلى خارج الجزيرة العربية فكانوا دعاته ، وامتزج الإسلام بتاريخهم وآدابهم وعلومهم وتغلغل فى كل ناحية من نواحى الثقافة العربية ؛ وعلى هذا الأساس يكون الدين الإسلامى من عوامل الوحدة بين العرب جميعاً لا فرق بين مسلمهم ومسيحيهم ، خصوصاً إذا

ذكرنا أن قانون الإسلام يقرر أن المسيحيين العرب إخواننا « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » .

* * *

هذان العاملان : العامل الدينى ، والعامل القومى هما أهم الأسس المشتركة فى قيام النهضات الحديثة فى الشرق الإسلامى ، ومن الطبيعى أن لكل نهضة من هذه النهضات عواملها الخاصة فى حدودها الجغرافية والسياسية. ونحن إذا قلنا « النهضات الحديثة » فإنما نقصد النهوض فى أوسع معانيه ، نقصد انبعاث الشعوب المسلمة الشرقية وحركتها الدافعة إلى الأمام فى شتى مناحى الحياة ، فى ميدان التحرر والاستقلال ، وميدان الثقافة والحركة العقلية ، وميدان الاقتصاد والاجتماع ، وكل ناحية من نواحى النهوض والتقدم .

وهذه الشعوب الناهضة تختلف ولا شك اختلافا كبيراً فى نهضاتها وفق الأوضاع والملابسات الخاصة بكل منها ، فبعضها قد ابتدأ يلج باب النهوض أو ابتدأ يسير فى طريقه ، وبعضها الآخر قد قطع فى ذلك أشواطا أو تم فيه بعض المراحل ، وهى كما تختلف فى درجة النهوض وفى مقدار سرعة السير فى طريقه تختلف أيضاً فى مقدار تأثرها بأحد هذين العاملين بذاته ، فالنهضة المصرية مثلا تأثرت بكل من العاملين بدرجة تكاد تكون متساوية ، فكما أننا نجد أن الشعور القومى الوطنى قد قوى فى نفوس المصريين وغطى على ما كان بينهم من خلافات مذهبية ووحد بينهم فى نهضتهم ، وأمات فكرة « الأقليات » خصوصاً بعد ثورة سنة ١٩١٩ فأصبح كل مصرى مواطنا لبقية إخوانه المصريين لا فرق فى ذلك بين المسلم

والقبطى ، فكذلك نجد الروح الدينى الإسلامى قد قوى واشتد بجانب الشعور القومى فأصبحت المبادىء الدينية تغذى القومية المصرية العربية وتناصرها وتلهبها فى النفوس ، ورأينا زعماء حركة سنة ١٩١٩ القومية وخطباءها كلهم أو جلهم من الرجال الذين تثقفوا ثقافة دينيـة أو تأثروا بهذه الثقافة على أى وجه ، ورأينا كثيراً من جماعات الإصلاح التى ظهرت إبان النهضة تحمل اسم الإسلام وتنتسب إليه ، وتعمل على إحياء مبادئه وبثها فى روح الشباب ـ والشباب عدة المستقبل ـ مثل جماعات « الشبان المسلمين » و « الإخوان المسلمين » كما رأينا أن جهود هذه الجماعات الموفقة أثمرت كثيراً من الخير ، وأن الشباب المثقف المصرى تبدلت حاله ، وأصبح يسعى إلى الاستزادة فى معرفة أمور دينه ومكونات قوميته ، كذلك أصبح يفخر بشرقيته وإسلامه ويعتز بهما ، وقد كان قديما لاتسره هذه النسبة ، ولا يرى فيها فخراً ، قانعاً بالاندماج فى الغير وراضياً بالعيش الذليل تحت جناح الأجنبى وكنفه . فالنهضة المصرية تكافأ فيها العاملان : العامل الدينى ، والعامل القومى .

وهناك بعض النهضات كان العامل القومى فيها أظهر أثراً من العامل الدينى مثل النهضة التركية الحديثة التى تزعمها بعد الحرب الكبرى الأولى الزعيم مصطفى كمال ، فهذه ولا شك تأثرت بالعاملين ، وإن كان تأثرها بالعامل الدينى الإسلامى لايظهر عند النظرة السطحية التى يكون أفقها محصوراً فى تصرفات الحكومة الكمالية ، حيث إنها لم تتمسك بجعل الدين الرسمى للدولة هو الإسلام ، وحيث إنها بعدت فى بعض التصرفات عن التعاليم الإسلامية

وخالفتها مثل إباحتها للمسلمة أن تتزوج بغير المسلم ، ومثل بعض قوانين الميراث التى سنتها ولم تراع فيها المبدأ الإسلامى . فعلى الرغم من هذه التصرفات وأمثالها نقول : إن النهضة التركية تأثرت أيضاً بالعامل الدينى ، إذ أننا نعتبر أن الشعب التركى هو صاحب النهضة ، ونعتقد أنه وإن خضع لحكامه فى كثير مما خالفوا الإسلام فيه لمقتضيات الأحوال الخاصة ، فهو لا يزال شعباً مسلماً يعتز بدينه ، وهو إنما قام بهذه النهضة التى ابتغى بها التحرر من ذل العبودية متأثرا بالروح الإسلامية التى تنادى بالحرية والمحافظة على الكرامة ، وتأبى الذل والعبودية .

والشعب التركى العثمانى مثل الشعب العربى قد تدخل الإسلام فى تكوين قوميته وتنبيه الشعور القومى بين أفراده ، فالأتراك العثمانيون قد توحدوا بفضل الاسلام ، وأصبحت لهم دولة قوية ومنزلة تاريخية بين الدول العظمى بفضل تزعمهم للمسلمين أيام الخلافة العثمانية . وهذه الاعتبارات كلها كانت من الأمور الهامة التى هيأت الشعب للنهوض ، وأثرت فى قيام النهضة التركية الحديثة .

أما ماارتكبته الحكومة الكمالية من تصرفات فأساسه تأثر مصطفى كمال بالثقافة الغربية التى تفرق بين الدولة والكنيسة ، ثم تأثره بظروف تركيا الخاصة إذ ذاك ، وبالأخطاء التى ارتكبتها حكومة الخلافة العثمانية وسلاطين آل عثمان . وكان من آثار ثقافته الغربية ، ومن آثار هذه الظروف الخاصة أن اعتبر — وهو مخطىء — أن أخطاء هؤلاء الخلفاء العثمانيين وهم زعماء المسلمين وقادتهم محسوبة على المبادىء الدينية الإسلامية ، وفاته أن الإسلام شىء وأن تصرفات المسلمين — وإن كانوا خلفاء — شىء آخر .

ولكن النهضة التركية وإن كان تأثرها بالعامل الدينى حقيقة ثابتة ، فتأثرها بالعامل القومى أشد وأظهر ، وهو الذى أعطاها طابعها ؛ ولقد ساعدت ظروف تركيا الخاصة فى جوارها للدول الأوروبية وتأثرها بأفكار الأوروبيين أكثر من غيرها من الشعوب الإسلامية ، ثم تأثرها بالضغط الأوروبى ، ساعد كل ذلك على طغيان الشعور القومى ، خصوصاً فى أواخر أيام السلطان عبد الحميد وبعد ثورة سنة ١٩٠٩ ، فلقد قام رجال « تركيا الفتاة » وأخذوا يسعون أولا إلى تتريك كل الشعوب الإسلامية الخاضعة لحكومة الخلافة العثمانية وساروا فى ذلك شوطا بعيدا ، ثم تطورت الحركة إلى الدعوة « للجامعة التركية » ، وأخيراً إلى العمل « للجامعة الطورانية » (١) .

ومن كل ما تقدم نستطيع أن نفهم كيف أن النهضة التركية تأثرت بالعامل القومى أكثر من تأثرها بالعامل الدينى ، وكيف أنها أخذت من القومية طابعها .

والبعض الآخر من النهضات الحديثة فى الشرق الإسلامى أخذ طابعه من العامل الدينى ، وكان تأثره به أبعد وأظهر مثل النهضة العربية السعودية ، فهى على الرغم من تأثرها بالعامل القومى الذى نما فى المحيط السعودى العربى إلى أن أصبح دعوة حارة وعملا فعالا للوحدة العربية ، فإنها أظهر النهضات الشرقية

---

(١) راجع حاضر العالم الإسلامى تعريب عجاج نويهض ج ٤ ص ٨٠ — ٨٢ .

الإسلامية فى أنها قد أسست وقامت على أساس دينى إسلامى ؛ فكما أن قائد هذه النهضة وباعثها جلالة الملك عبد العزيز آل سعود زعيم سياسى ، فهو أيضاً زعيم دينى وهابى يعتبره الوهابيون إماماً لهم ، وهو القائم على نشر وتنفيذ تعاليم المصلح الدينى محمد بن عبد الوهاب ، ولا يزال يحكم رعيته من وقت أن تأسست دولته إلى الآن على أساس من المبادىء الدينية الإسلامية .